

الإدغام والتماسك النصي

قراءة من منظور لسانيات النص

د. رشيد عمران

جامعة بشار

مقدمة: يأتي عنوان هذه الدراسة "الإدغام والتماسك النصي" في إطار رؤية تحاول عقد صلة الربط بين علوم مركزية في الثقافة الإسلامية وهي علوم القرآن الكريم، وبخاصة دراسات الصوت القرآني، وما جاء في لسانيات النص من خلال مقولة جوهرية من مقولات اللسانيات النصية، هي التماسك النصي. يحتل التماسك موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تعنى بتحليل النصوص، باعتباره يرمي إلى غاية بعيدة وهي توظيف الآليات النحوية في الربط بين أجزاء النص، وبالتالي فهم المعنى من خلال رؤية متماسكة لا تقتصر في تحليلها على الجملة أو مجموعة الجمل، وعلوم القرآن في الحقيقة تُعدّ بداية أصيلة لما أصبح يعرف بلسانيات النص، وذلك لاشتمالها على دراسة بعض القضايا النصية من مثل التماسك، والتكرار، والمناسبة وكلها قضايا جوهرية في مباحث اللسانيات النصية.

لقد قام القراء والمجودون بجهود جبّارة في سبيل العناية الصوتية بالنص القرآني نظراً لقلة الإمكانيات آنذاك، وقد وصفوا الأصوات اللغوية وصفا دقيقا ومن الظواهر التي وصفوها وصفا دقيقا الإدغام، غير أن ذلك الوصف العلمي التفصيلي ربما حجب الأنظار عن رؤية وظيفة للإدغام في القرآن الكريم. إن للإدغام وظيفة نصية، هي تحقيق التماسك بين أجزاء الكلمة أو الكلمات المتجاورة، ومن هنا يتجاوز الإدغام القاعدة إلى عدول صوتي يهدف إلى تحقيق التماسك على مستوى الكلمة، ولعلّ اهتمام القراء والمُجودين بالأصوات

وتحديدها تحديدا دقيقا، تحديدا عرّ نظيره في حضارات أخرى، تحديداً ناتج من تعاملهم مع نصّ مقدس وهو القرآن الكريم، فهم "يعدون أنفسهم مسئولين مسؤولية كاملة عن الحفاظ على سلامة الأداء القرآني، وذلك من خلال رصد علامة الصحة والاعتلال في سبيل التأدية والقراءة".¹

لقد قسمت الدراسة إلى مقدمة، ثم تعريف بالإدغام لغة واصطلاحاً، ثم أنواع الإدغام، وأخيراً الوظيفة التماسكية للإدغام.

1- الإدغام لغة: "الدال والغين والميم أصلان : أحدهما من باب الألوان، والآخر

دخول شيء في مدخل ما ... ومنه الإدغام في الحروف"²، ويعرفه صاحب القاموس بقوله : "أدغم الفارس اللجام أدخله في فيه، والحرف في الحرف أدخله".³

2- الإدغام اصطلاحاً: الإدغام اصطلاحاً هو : التقاء حرف ساكن بحرف

متحرك حتى يصير حرفاً واحداً مشدداً من جنس الثاني ؛ فيرتفع اللسان عند النطق به ارتفاعاً واحدة ويلزم موضعاً واحداً⁴، وإن الإدغام بلغة علم الأصوات الحديث هو "تقريب الصوت من الصوت بحيث تنتقل إلى أحدهما صفة من الآخر"⁵، وهذا التقارب والتأثير الصوتي قد يكون تقديمياً وقد يكون رجعياً وهو نوعان⁶ :

➤ تأثير رجعي حيث يتأثر الصوت الأول بالصوت الثاني.

➤ تأثير تقديمي حيث يتأثر الصوت الثاني بالصوت الأول.

وهكذا نرى تقارباً وتكاملاً من التعريفين اللغوي والاصطلاحي للإدغام

ويخصص التعريف الاصطلاحي الحروف المدغمة بأن تكون من جنس واحد.

3- أنواع الإدغام: ينقسم الإدغام عند علماء القراءات القرآنية إلى :

3- 1 الإدغام الكبير: وسُمي بالإدغام الكبير "لكثرة وقوعه ؛ إذ الحركة

أكثر من السكون وقيل لتأثيره في إسكان المتحرك قبل إدغامه، وقيل لما فيه من الصعوبة، وقيل لشموله نوعي المثليين والجنسين والمتقاريين"⁷، والمقصود بالمثليين، والجنسين والمتقاريين ما يلي :

المتمثالان : الحرفان المتفقان مخرجا وصفة ؛ كالتاء والتاء، والجيم والجيم.

المتقاربان : الحرفان المتقاربان في المخرج أو الصفة، أو في المخرج والصفة كالدال والسين، والثاء والتاء.

المتجانسان : الحرفان اللذان اتحدا مخرجا، واختلفا صفة.

و يتم الإدغام الكبير عبر آيتين هما⁸ :

الأولى : حذف حركة الصوت المدغم ليتم التقاء الصوتين التقاء مباشرا.

الثانية : قلب الصوت الأول من مثل الثاني لتتم المماثلة بين الصورتين على صورة الإدغام.

والإدغام الكبير في القراءة القرآنية امتاز بها أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)

في قراءته، ويبين أن الإدغام الكبير مدرسة نطقية⁹ كانت سائدة عند العرب.

و من النماذج القرآنية للإدغام الكبير ما يلي:

قوله تعالى : ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾¹⁰

قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾¹¹

قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾¹²

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾¹³

3- 2 الإدغام الصغير: وهو أن يأتي حرفان متمثالان أو متقاربان

أو متجانسان ؛ أولهما ساكن ليس حرف مد، والثاني متحرك فيدغم الأول في

الثاني، ويكون الإدغام الصغير في كلمة واحدة أو كلمتين متجاورتين، ومن

النماذج القرآنية للإدغام الصغير ما يلي :

قوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾¹⁴

قوله تعالى : ﴿وَعَادًا وَتَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ﴾¹⁵

3- 3 الإدغام الكامل: والمقصود بالإدغام الكامل عند القراءة ؛ أنه إدغام

النون الساكنة والتتوين بغير غنة مع حري في (اللام) و(الراء)، ويكون الإدغام الكامل بأن تقلب النون الساكنة إلى لام أو راء ومن ثم تدخل فيهما إدخالاً كاملاً، و"القراء أدغموهما في اللام والراء للقلب، وأسقطوا غنة التتوين، والنون منهما، لتتزلهما من اللام والراء منزلة المثل لشدة القرب"¹⁶، ومن النماذج القرآنية لهذا الإدغام ما يلي :

مع الراء : قوله تعالى : قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾¹⁷، وقوله

تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾¹⁸

مع اللام : قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾¹⁹

وقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾²⁰

3- 4 الإدغام الناقص: هو إدغام النون الساكنة والتتوين مع الحروف

المجموعة في كلمة (ينمو) وهو إدغام بغنة ناتجة من أثر بقاء صوت النون ؛ حيث إنها لم تحذف نهائياً غير أنها تدرجت إلى مخرج آخر وهو الخيشوم، ولذلك أطلق على هذا النوع من الإدغام إدغام ناقص، ومن نماذجه في القرآن الكريم :

مع الراء : قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾²¹

مع اللام : قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾²²

مع النون : قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾²³

مع التتوين : قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾²⁴

4- الوظيفة التماسكية للإدغام: الإدغام في جوهره ليس سوى ظاهرة

صوتية تحدث للتخلص من بعض المشاكل والصعوبات الصوتية، فعلة الإدغام التخفيف لأن اللسان إذا نطق بالحرف من مخرجه ثم عاد إليه ثانية لينطقه كان ذلك صعباً عسيراً على اللسان، وقد شبه الخليل ذلك بمن يمشي مقيداً يرفع رجله من موضع ثم يعيدها إليه وهذا صعب ثقيل²⁵.

ونستطيع أن نتبين أن ظاهرة الإدغام ؛ من أسبابها الرئيسية خلق تماسك صوتي من خلال التقريب بين الأصوات، وبالتالي إدغامها، ويتبين ذلك بوضوح من خلال استعراض المواطن التي يمتنع فيها الإدغام²⁶ وهي:

➤ إذا كان الحرف الأول مشدداً، كقوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾²⁷، وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾²⁸

➤ إذا كان الحرف الثاني منونا نحو قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾²⁹، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾³⁰

◀ إذا كان الحرف الأول معتلا قليل الحروف، كقوله تعالى : (سَوَاءٌ مِّنْكَ مَنَ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)³¹، وكقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾³²

◀ إذا كان الحرف الأول تاء المخاطب، أو ياء المتكلم، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾³³

◀ إذا كانت الحروف متباعدة المخرج كقوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّي مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾³⁴

إن موانع الإدغام هي ؛ التشديد في الحرف الأول، أو التثوين، أو الاعتلال أو تاء المخاطب أو المتكلم، وكلها أسباب تؤدي إلى التباعد في المخرج بين الحروف مما يؤدي إلى صعوبة في أدائها ؛ فتتدخل ظاهرة الإدغام على أساس تحقيق

الانسجام بين الأصوات وبالتالي إحداث تماسك صوتي هو اللبنة الأساس في البناء النصي.

إن ظاهرة الإدغام في جوهرها تقوم على أساس اقتصاد المجهود في الأداء النطقي، الاقتصاد الذي يستلزم تداخل الأصوات فيما بينها، وهذا التداخل بدوره يستلزم أن يكون على أساس التناسب بين الأصوات، ومن ثم فإن وظيفة التماسك الصوتي تبدو مقصدا أساسيا، وركنا جوهريا في ظاهرة الإدغام .
وفي ذلك يقول الزمخشري (ت538هـ) : "ثقل المتجانسان على ألسنتهم فعمدوا بالإدغام إلى ضرب من الخفة"³⁵ .

ويقول ابن جني (ت392هـ) : "إن الإدغام المؤلف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت ... ألا ترى أنك في قطع ونحوه قد أخفيت الساكن الأول في الثاني حتى نبا اللسان عنهما نبرة واحدة، وزالت الوقفة التي كانت في الأول لو لم تدغمه في الآخر، ألا ترى أنك لو تكلفت ترك إدغام الطاء الأولى لتجشمت لها وقمة عليها تمتاز من شدة ممازجتها للثانية بها، كقولك : قططع، وسككر، وهذا غنما؟ تحكمه المشافهة به، فإن أنت أزلت تلك الوقيفة والفترة على الأول خلطته بالثاني فكان قربه منه وإدغامه فيه أشد لجذبه إليه وإلحاقه بحكمه"³⁶ .

إن هذا النص لابن جني ؛ ليؤكد أن للإدغام وظيفة تماسكية على مستوى الكلمة، أو الكلمات المتجاورة بما يؤدي إلى الاقتصاد في المجهود النطقي .

وقد تجاوز بعض العلماء ذلك المستوى السطحي إلى ملاحظة التماسك بين الإدغام والمعنى الذي سيق له، وفي هذا يقارن أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت708هـ) ؛ بين الإدغام في (نجيناكم) و(يذبّحون) في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾³⁷ ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾³⁸ .

ويخلص الغرناطي في النهاية إلى مقصد الإدغام في الآية بقوله : "مقصود به تعداد وجوه الإنعام على بني إسرائيل وتوالي الامتتان ليتبين شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر ... فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لإتيانه بالكثرة، ولو قيل هنا : وإذ أنجيناكم لما أنبأ بذلك ولا يذبحون ولم يكن لفظ أنجيناكم غير مضاعف ليناسب يذبحون، فروعى مناسبة اللفظ بما بعد ومناسبة المعنى"³⁹.

ويربط سيد قطب بين الإدغام الوارد في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾⁴⁰.

يقول سيد قطب في هذا الصدد : "يتصور الخيال ذلك الجسم المتأقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل، إن في هذه الكلمة طناً على الأقل من الأثقال؟؟ ولو أنك قلت تتأقلت لخفّ الجرس ولضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها"⁴¹.

إن هذا النص يؤكد على أن الإدغام كان له دور حاسم في رسم الصورة المطلوبة وتشخيصها، ويدل على ذلك التعبير بالمخالفة أي فك الإدغام من (اتأقلتُم) واستبدالها بـ(تتأقلتُم)؛ ومعها تختفي الصورة المطلوبة تماماً.

ونستنتج في الأخير أن دراسات الصوت القرآني عند القراء والمجودين والنحويين، كان منطلقها الأول حفظ سلامة الأداء الصوتي للقرآن الكريم وتحسينه، وقد اهتم دارسو الصوت القرآني بتحديد مخارج الحروف وصفاتها. بحيث لا تخلو أغلب الدراسات القرآنية الصوتية من هذا الباب، ذلك أن هذا الباب مقدمة أساس لفهم التفاعل الصوتي لإحداث التماسك في الكلمة أو التركيب ومن هنا اهتم القراء والمجودون بدراسة بعض الظواهر الصوتية التي يبدو البحث عن التماسك مقصدها الرئيس، من مثل المناسبة الصوتية، والإتباع، والإدغام والتماسك بين الصوت والمعنى.

- 1- علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب النشأة والتطور، دار الكتب العلمية، ط1 1427هـ-2006م، بيروت، ص107
- 2- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة الحلبي، ط2، 1390هـ-1970م، القاهرة، 2/ 284
- 3- الفيروزآبادي (محمد بن يعقوب 817هـ)، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، 1997م بيروت، مادة (دغم)
- 4- الداني، الإدغام الكبير في القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط1، 1414هـ-1993م، بيروت، ص40
- 5- عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي (أبو عمرو بن العلاء)، مكتبة الخانجي، ط1، 1048هـ-1987م، القاهرة، ص124
- 6- خديجة أحمد مفتي، نحو القراء الكوفيين، المكتبة الفيصلية، 1406هـ-1985م، مكة المكرمة ص281.
- 7- ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد ت832هـ)، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت، 1/ 274-275
- 8- عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي (أبو عمرو بن العلاء)، مكتبة الخانجي، ط1، 1048هـ-1987م، القاهرة، ص239.
- 9- المرجع نفسه، ص121
- 10- سورة البقرة، آية 20
- 11- سورة الأنعام، آية 53
- 12- سورة البقرة، آية 185
- 13- سورة الرعد، آية 29
- 14- سورة الإسراء، آية 24
- 15- سورة العنكبوت، آية 38
- 16- إدريس عبد الحميد الكلاك، نظرات في علم التجويد، مؤسسة المطبوعات العربية، ط1 1401هـ-1981م، بيروت، ص73.
- 17- سورة البقرة، آية 05.

-
- 18- سورة البقرة، آية 25
19- سورة البقرة، آية 02
20- سورة البقرة، آية 13
21- سورة الرعد، آية 11
22- سورة النور، آية 46
23- سورة التوبة، آية 124
24- سورة السجدة، آية 08
25- سيبويه، الكتاب، 530/3
26- بن غلبون، التذكرة في القراءات، تحقيق عبد الفتاح بحيري إبراهيم، مؤسسة الزهراء، 1397هـ-1977م، القاهرة، 1/ 95
27- سورة آل عمران، آية 26
28- سورة القمر، آية 48
29- سورة الأعراف، آية 165
30- سورة آل عمران، آية 193
31- سورة الرعد، آية 10
32- سورة غافر، آية 28
33- سورة يونس، آية 99
34- سورة الإسراء، آية 80
35- الزمخشري، المفصل في علم العربية، دار الجبل، ط2، بيروت، ص393
36- ابن جني، الخصائص، 2/ 139
37- سورة البقرة، آية 49
38- سورة الأعراف، آية 141
39- الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة، 1405هـ-1985م، بيروت، ص53-54.
40- سورة التوبة، آية 38.
41- سيد قطب، دار المعارف، التصوير الفني في القرآن، 1996م، القاهرة، ص76.